النبي محمد (ص) وطريقة العبور من المجتمع الجاهلي إلى المجتمع الإسلامي نحو نظرية للتنمية

نجف لك زائي*
تعريب: محمد حسن زراقط

مدخل:

تمثل التنمية واحداً من اهتمامات الإنسان المعاصر؛ ولذا تحولت الأبحاث حول هذا المفهوم وطرائق تحقيقه إلى هم فكري لكثير من المختصين الذين يدخل الاشتغال على هذا المفهوم في دائرة اهتمامهم. وقد كثرت الطروحات المقدمة في هذا المجال، فهناك من يدعو إلى احتذاء طرائق الغرب وأساليبه، وهناك من يدعو إلى تبيئة محاولات الانتقال إلى ضفة التنمية بما يتوافق مع المجتمع المحلي وخصائصه. وتحاول هذه المقالة تبني وجهة النظر الثانية لدراسة الطريقة النبوية في مجال النقلة الاجتماعية التي أحدثها الإسلام في المجتمع العربي في ذلك الوقت. وسؤال المقالة هو: كيف استطاع النبي(ص) الانتقال بالمجتمع في فرصة غير طويلة نسبياً من حالة إلى حالة على المستويات كافة من ثقافية واقتصادية وغيرها؟

ونحاول في هذه المقالة الاستفادة من المعطيات التاريخية المتوفرة لتقديم نظرية في التنمية تصلح للعصر الراهن. وذلك من خلال طرح نظرية المحتوى الباطني للإنسان.

* باحث متخصص في الفكر السياسي الإسلامي - إيران.

المقدمة

لقد كثر الاهتمام بسيرة النبي(ص) ووقائع حياته الشريفة ربما كما لم يكثر ذلك بنبي من الأنبياء في أي دين من الأديان، ولكن مع ذلك بقيت جوانب من السيرة العطرة ما زالت تستحق الاهتمام بها وتسليط الضوء عليها، ومن الأمور التي لم تنل ما تستحقه من عناية من الباحثين في السيرة وأحوال النبي(ص)، المنهج الذي اعتمده النبي(ص) لنقل المجتمع العربي من الجاهلية إلى الإسلام بما تعنيه هذه النقلة من تطور وتحول أصاب الكثير من أبعاد الاجتماع العربي في ذلك الوقت. والسؤال الجدير بالإجابة هو: كيف استطاع النبي(ص) في فترة غير طويلة نسبياً إحداث كل هذه التغييرات على المستوى الفردي والاجتماعي؟ وليكون السؤال مبرراً وتتضح حقيقته لا بد من الالتفات إلى أن التغير الذي طرأ على المجتمع لم يكن تغيرا سطحياً وبسيطاً، بل كان تغيراً في الصميم أصاب كل نواحي الحياة الفردية والاجتماعية، أو أكثرها على الأقل. وكائنا ما كان هذا الجواب، فإنه يقدم لعصرنا ومجتمعنا فائدة مهمة ويساعد على معالجة مشكلات عصرنا، في ظل الحيرة التي تبدو واضحة للعيان حول الطريقة التي يحسن اعتمادها للسير بالمجتمع الإسلامي والانتقال به من حالة التخلف إلى حالة النمو.

وتوضيح ذلك: أنه إذا كانت التنمية هي أهم ما يقلق الإنسان المعاصر، وكان المقصود من التنمية، التنمية في معانيها ومجالاتها كافة سواء في ذلك التنمية الاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها، وكذلك كان المقصود من التنمية الانتقال من وضع مرغوب عنه إلى وضع مرغوب فيه؛ إذا اتفقنا على ذلك كله، فإن أبرز من أدى هذه المهمة عبر التاريخ هو النبي(ص) . ولا شك في أن هذا الكلام ليس سوى دعوى تحتاج إلى اختبار وتدقيق. ويتم ذلك بالنظر إلى ما أنجزه النبي(ص) خلال فترة وجوده بين الناس. والعلامات التي يمكن اعتمادها في القياس والحكم، تنتسب إلى ميادين عدة، منها الثقافي والسياسي والاقتصادي.

واختيار هذه العلامات مبني على مصادرة مفادها، أن الفكر والثروة والسلطة، هي ثلاثة روائز أساسية للحكم على المجتمعات بالتقدم أو التخلف. وهناك مصادرة أخرى أنطلق منها وأبني عليها بحثي، وحاصلها أن التنمية ظاهرة تخضع لقوانين وقواعد محددة يمكن العثور عليها واكتشافها.

والفرضية التي نريد التحقق من صدقها في هذه المقالة هي أن النبي(ص) قد استفاد

أثناء مسيرته في الدعوة ونقل المجتمع من الجاهلية إلى الإسلام، من منهج وطريقة ثقافية. وبعبارة أخرى: كانت الثقافة والقرارات الثقافية هي النواة الأساس في محاولته التغييرية. وتقوم هذه النظرية التي ندعي أن النبي(ص) قد اعتمدها في دعوته على أنه عندما تتغير المفاهيم والرؤى الثقافية التي يحملها الإنسان، فإن سلوكياته تتغير في مقام العمل، أو فقل إن العمل مرهون بالثقافة التي يحملها الإنسان فكل، تغيير يطرأ على الثقافة ينعكس على العمل.

بل إن النبي(ص) عندما أسس الدولة الإسلامية في المدينة جعل على رأس أولوياته الاهتمامات الثقافية. والإطارُ النظري لهذا البحث، يمكن تتبع بعض مفرداته في نظريات ماكس فيبر والسيد محمد باقر الصدر، وسوف يأتي تفصيل هذا الأمر في محله. وبناء على هذه المقدمة يمكن رسم خطة البحث على النحو الآتي:

١- الإطار النظري

٢- الجاهلية وخصائصها

٣- مدينة النبي وخصائصها

٤- نتائج البحث

الإطار النظري:

يمكن تصنيف نظريات التنمية إلى أربع فئات:[١]

أ- النظريات التي تقصر النظر في دراسة ظواهر التخلف والتنمية على الأسباب الداخلية، مثل: نظرية الثنوية الاقتصادية الاجتماعية (سنجر)، نظرية (رستو، Rostow) حول مراحل التنمية، ونظرية (ماكس فيبر Max weber)، ونظرية المحتوى الداخلي للإنسان (السيد محمد باقر الصدر).

ب- النظريات التي تبحث عن علل وأسباب تخلف العالم الثالث خارج حدود مجتمعاته، وتبني أفكارها على أن أسباب التخلف خارجية؛ مثل: نظرية (لنين Lenin) التي ترى إلى الإمبريالية بوصفها آخر مراحل الرأسمالية، ونظرية الإمبريالية والاقتصاد العالمي (بوخارين Bukharin) و(كاوتسكي kautsky)، وأخيراً نظرية تراكم رأس المال (روزا لوكسمبرغ Luxemburg Rosa).

ج- النظريات التي تلاحظ كلا من الأسباب الخارجية والداخلية للتخلف الموجود في العالم الثالث، ولكنها في الوقت عينه تولي مزيدا من الاهتمام بالأسباب الخارجية. وهذه النظريات المعروفة بالنظريات الإمبريالية الجديدة، غالبا ما تم بناؤها والتنظير لها من قبل مفكرين ماركسيين، أو من مفكرين عندهم نزوع ماركسي ولو لم يكونوا ماركسيي الانتماء. ومن أمثلة هذه النظريات: نظرية التبادل غير المتكافئ (إمانويل والرستين Im-manuel Wallerstein)، ونظرية الإمبريالية الإعلامية (جالتونج Galtung).

د- النظريات التي ترى في الأسباب الداخلية العامل الأقوى للتخلف في المجتمعات المتخلفة، ومن أمثلة هذه النظريات: نظرية التنمية غير المتكافئة (سمير أمين)، نظرية الانسجام الداخلي (محمود سريع القلم).

وتجدر الإشارة إلى أنه قبل طرح النظريات الجديدة حول التنمية، نلاحظ في أكثر الكتب والنصوص القديمة في هذا المجال نظريات تهتم بدراسة الأسباب السياسية المحيطة بالبيئة التي كان يعمل فيها النظام السياسي. ومثال ذلك، ما هو موجود عند (منتسكيو) في كتابه «روح الشرائع»، أو نجد تفسيراً لظواهر انحطاط المجتمعات وزوال النظم السياسية بأسباب عرقية، كما هو عند (غوبينو). ولكن هذه النظريات لم تعد تجد من يتبناها.

هذا ويمكن إعادة النظر في التصنيف المتقدم لنظريات التنمية وجمعها في فئتين، هما: النظريات التي ترى في الإرادة الإنسانية عنصراً أساسياً، والفئة الثانية التي يغلب عليها التفسير الجبري التاريخي للظواهر التي تحدث في الاجتماع الإنساني. وإن أنصار النظريات الحتمية أراحوا بالهم بإلقاء تبعة التخلف على الأوضاع الجغرافية، والاستعمار والعرق، والقضاء والقدر بمفهومهما المحرف وغير الصحيح، وجعلوا هذه الأمور علة للتخلف، في حال أنها في أحسن الأحوال ربما تكون نتيجة من نتائج التخلف لا علة له.

ومن الملفت أن النبي(ص) ألقى بالكثير من هذه النظريات في زوايا النسيان، من خلال العمل لا من خلال التنظير فحسب، ولم تكن كل المعيقات الطبيعية من العرق، وظروف المناخ، والأوضاع الجغرافية، وغيرها من الأمور التي ربما ينسب إليها التخلف، عائقاً له، ولا للمسلمين عن بلوغ الأهداف التي جعلها نصب عينيه، وغاية لدعوته.

ولا يسعنا في هذا المقام استعراض تلك النظريات، والبحث حولها بشكل مفصل؛ ولذلك سوف نكتفي بالإشارة بحدود ما يخدم أغراض مقالتنا هذه، لوقوع بعض تلك الإشارات موقع المقدمة لهذه المقالة، ومن تلك الإشارات المفيدة: البحث حول مفهوم التنمية.

مفهوم التنمية:

طرحت الكثير من الأفكار لتعريف مفهوم التنمية، وعلى الرغم من كون الاختلاف في التعريف أمراً طبيعياً وعادياً في مثل هذه المفاهيم النظرية، إلا أن سبب الاختلاف يعود في الواقع إلى تفاوت الرؤى واختلافها، واختلاف الأطر النظرية التي ينظر من خلالها إلى هذا المفهوم، وكذلك الزوايا التي يرى منها، ومن هذه التعريفات:

أ- التنمية هي الارتقاء والتطور المستمر للمجتمع والنظام الاجتماعي، نحو حياة أفضل وأكثر إنسانية. ولمعرفة المحتوى الداخلي للتنمية، لا بد من الالتفات إلى ثلاث قيم أساسية يقوم هذا المفهوم عليها بوصفها أعمدة له. وهذه القيم هي: الاعتماد على الذات، والحرية، والحياة، وهذه القيم هي أهداف مشتركة يسعى أفراد المجتمع جميعا لتحقيقها.(٢)

ب- التنمية هي مسيرة انتقال المجتمع من حالة مرغوب عنها إلى حالة مرغوب فيها. وتشمل هذه الصيرورة كل مؤسسات المجتمع، وهي في واقعها تبدل حال وأوضاع المجتمع، وانتقاله من حالة القوة والاستعداد إلى حالة الفعلية. وبعبارة أخرى: التنمية هي تحول يؤدي إلى تفتح استعدادات المجتمع والأفراد على المستوى الاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، والسياسي.(٣)

ج- التنمية هي الاستفادة المثلى من الطاقات المادية والإنسانية المتوفرة في مجتمع من المجتمعات.(٤)

ولا يخفى أن هذه التعريفات تشتمل على مفهوم تهيئة الظروف المناسبة للأفراد، ولو بشكل غير صريح. وبناء عليه، فإن هذه التعريفات مع الأخذ بعين الاعتبار الاختلاف في النظر والمنظر يكمل أحدهما الآخر، ولا تكون متناقضة في ما بينها. وكأن في كل أمة من يرى أن الرؤية الكونية التي يحملها الأفراد تعد أهم العناصر الموجهة للتنمية.

في هذه المقالة سوف نحاول تسليط الضوء على التنمية بمعناها العام الواسع الذي يتسع ليشمل التنمية الثقافية والسياسية والاقتصادية، الاجتماعية والفردية. وبقول آخر: التنمية المرادة في مقالتنا هذه التنمية كماً وكيفاً، والتي ينتج عنها الإعمار المتعدد الجوانب.

ولما كانت مقالتنا هذه تدور حول المجتمع الجاهلي وانتقاله من حالة التخلف إلى حالة النمو والتطور، فإن ذلك يدعونا إلى الإشارة إلى الشواخص والعلامات التي على ضوئها

وصفنا المجتمع الجاهلي بالتخلف، ووصفنا انتقاله إلى الإسلام والمرحلة الإسلامية بالتنمية.

يعدد «سريع القلم» أربع مجموعات من العناصر التي تشكل مفهوم التنمية ومشتقاته، ضمن شرحه لنظريته التي أسسها ليرجع فيها دور الأسباب الداخلية والنظم المحلية على الأسباب الخارجية، في مجالي التنمية والتخلف، وهذه المجموعات هي ما يأتي:(٥)

أ- **المشروعية**: حاصل حل أزمة المشروعية المشتقات الآتية:

- قبول النقد
- المجتمع أكبر من السلطة
- تحمل اختلاف الأفكار والرؤى
- قبول الإصلاح
- الاتكال على الذات
- الاهتمام بالوقت، والإحساس بأهميته
- تشكيل الهيئات والمؤسسات الحاكمة
- بيد الحاكم
- الانسجام بين مصالح الهيئة الحاكمة ومصالح الأمة
- وجود أشخاص أكفياء في مواقع الإدارة والقرار

ب- **الرؤية العقلانية**: وحاصلها المشتقات الآتية:

- الدقة والمحاسبة
- النظرة المستقبلية
- اعتماد الكفاءة والفعالية
- الفردانية الإيجابية
- الإدارة محل التحكم
- ضبط الانفعالات
- التعلم والاعتبار من الماضي
- حب الوطن
- تربية النخب

ج- **النظام التربوي**: يهتم النظام التربوي للمجتمع النامي أو السائر نحو التنمية بالأمور الآتية، وينظم مؤسساته وفقها:

- التعلم الجماعي
- الفكر الاستقرائي
- الاهتمام بالنظام والبرنامج
- التحمل
- النظام
- النظام القانوني المرن

- النسبية
- التعرف على الظواهر
- الأخلاق والمسؤولية الاجتماعية
- الفضائل الاجتماعية
- الهوية المتينة الثابتة

د- **الوسائل والطرائق والأساليب:** في هذا المجال تبدو المشتقات الآتية مورد اهتمام:

- إبعاد السياسة عن اتخاذ القرارات
- القدرة على التركيب والتبديل
- النظرة الدولية
- الاهتمام بالرقابة
- تنويع مصادر الدخل والإنتاج
- الجهد والسعي
- الواقعية
- الإدارة والمؤسساتية
- الدولة النزيهة والمراقبة

هذا ويشير (آلكس إينكلس Alex Inkeless)، في أبحاثه التي أجراها على بلاد عدة، إلى نموذج مثالي للإنسان المعاصر. يطرح إينكلس تسلسلاً نسبياً يبدأ من الصفر وينتهي بالمائة لقياس الحداثة عند بني البشر؛ ووفق معادلاته يرى أن المشتركات التي تجمع الأفراد الحداثويين هي:

١- الاستعداد لاكتساب تجارب جديدة

٢- الاستقلال المتنامي عن وجوه السلطة، مثل الوالدين ورؤساء القبائل

٣- الإيمان بالعلم

٤- قابلية التحريك

٥- التخطيط لآماد بعيدة.[٦]

وقد حاول ماريون ليفي (Marion levy) المقارنة بين المجتمعات الحداثوية والمجتمعات غير الحداثوية، فتوصل إلى أن أبرز مميزات المجتمع غير الحديث هي: انخفاض نسبة التخصصية، ارتفاع مستوى الاكتفاء الذاتي، رواج القيم المؤسسة على التقاليد والتراث، الخصوصية، التركيز على تداول النقد، هيمنة القيم العائلية مثل وجود علاقات غير رسمية في إطار البنى والمؤسسات الرسمية، وحركة البضائع والخدمات باتجاه واحد من الأرياف إلى المدن.

وفي المقابل، فإن خصائص ومميزات المجتمع الحديث، هي: ارتفاع درجة التخصص، الصلات المتبادلة بين المؤسسات، رواج القيم الثقافية المبنية على العقل والمنطق، العمومية، ارتفاع درجة التمركز، الاهتمام الزائد بتداول النقد، الحاجة إلى البيروقراطية وفصل المؤسسات والسلطات، حركة الخدمات والبضائع باتجاهين بين الريف والمدينة.

وبالمقارنة بين نظريتي ليفي وسريع القلم، يبدو للمدقق اهتمامهما البالغ بالأبعاد المادية. ومن الواضح أن نظرية سريع القلم أوفق بدراستنا هذه لمدينة النبي(ص)، من نظرية ماريون ليفي؛ وذلك لأن أفكار هذا الأخير مرتبطة إلى حد كبير ببعض المفاهيم التي استجدت بعد الثورة الصناعية التي لم يعرفها الإنسان إلا بعد عصر النهضة، على الرغم من أنه ربما يمكن الاستفادة من بعض المفاهيم المكونة لها، وبخاصة إذا لاحظنا أن إحدى الظواهر المقارنة لدعوة النبي(ص) واستقراره في المدينة هي الانتقال من المجتمع الرعوي إلى المجتمع القروي.

وفي سياق تحليل مفهوم الحداثة وتطبيقه على المجتمعات الإنسانية يحدد الدكتور همايون إلهي خصائص البلدان المتخلفة في القرن العشرين على النحو الآتي:

١- التعلق والازدواجية الاقتصادية

٢- هجرة الرساميل

٣- هجرة الأدمغة

٤- استيراد البضائع بشكل غير متوازن

٥- تصدير المواد الخام

٦- الضعف العلمي

٧- النمو السكاني المرتفع

٨- انخفاض مستوى الدخل، وانعدام العدالة في التوزيع

٩- وجود صناعة مرتهنة

١٠- العجز عن توسيع التجارة مع البلدان الأخرى.[٧]

١١- انخفاض الثقافية وارتفاع نسبة الأمية.

١٢- البطالة الظاهرة والبطالة المقنعة

١٣- انخفاض مستوى العناية الصحية

١٤- انتشار الفقر

١٥- تحديد مصادر الإنتاج

١٦- ارتهان التجارة الدولية

١٧- عدم وضوح، وسوء التشكيلات الإدارية

١٨- عدم انسجام، وانعدام توازن النمو الاقتصادي

١٩- انخفاض عائدات المحاصيل الزراعية

ويحلل ماكس فيبر في كتابه «الأخلاق البروتستانتية وروحية الرأسمالية»، مفهوم التنمية الرأسمالية في بلاد عدة وينتهي إلى نتائج قد نتفق معه فيها وقد نختلف، ولكن مع ذلك يمكن الاستفادة من الإطار النظري الذي يحدده لنظريته في دراستنا هذه. يرى فيبر أن الاعتراضات التي أثيرت من قبل مارتن لوثر وكالفن في وجه المسيحية الكاثوليكية أدت إلى قراءة جديدة للمسيحية، وقد نجم عن هذا التحول الثقافي (الديني) نظرة مختلفة إلى الدنيا والجهد الاقتصادي. وبالنظر إلى هذا الإطار الفيبري يمكن القول: إن النبي(ص) بدعوته أحدث تغيراً أساسياً في النظرة الثقافية لأهل الجاهلية إلى الدنيا، وأدخلهم إلى عالم جديد مختلف مع رؤية تختلف جذريا عما كانوا عليه قبل الإسلام.[٨]

ويستفيد السيد محمد باقر الصدر في بحثه حول السنن التاريخية في القرآن، من قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[٩]، يستفيد من الآية لتثبيت رأيه في أن أهم العلل والأسباب لكل التغيرات والتطورات التي تعرفها ساحة المجتمع الإنساني هي إرادة الإنسان واختياره. وهذه الإرادة تتغير تبعاً للأفكار التي توجه حركة الإرادة وتحدد خياراتها.

وينقسم الناس وبالتبع لهم المجتمعات على أساس المثل التي يتبنونها إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: أولئك الذين يشتقون مثلهم الأعلى من الواقع الخارجي المحيط بهم. ومثل هؤلاء الناس لا هم لهم وراء هذا الواقع، ولم ولن يستطيعوا الارتقاء فوقه. ومن هنا، وبحسب الشهيد الصدر يكون حالهم هو تكرار الماضي دون أية إضافة تضاف إليه.

وسوف يبقى هؤلاء أسرى التقليد والعادة والسنن الجافة التي عفا عليها الزمن، ويصف القرآن حال هؤلاء بقوله: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(١٠)، وكذلك بقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾.(١١)

ويحدد القرآن الكريم في هاتين الآيتين سببين يدعوان الناس إلى اختيار هذه المثل المنخفضة، هما العادة والأنس من جهة، والقوى الحاكمة المستبدة من جهة أخرى؛ وذلك لأن الحكام عادة يدعون الناس إلى عبادتهم بدل عبادة الله ويعملون على إفراغهم من القيم الإلهية بل والإنسانية أيضا: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾(١٢)، ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.(١٣)

ومثل هذه المجتمعات تزول من الوجود عند أي هجوم عليها من الخارج، أو تستسلم للمثل الجديدة التي ترى فيها خشبة الخلاص وقد تكون كذلك واقعا وقد تكون مضلة. ومن الصنف الأول كان المثال الذي طرحه النبي(ص) حيث أدى تمسك المجتمع العربي به إلى تحول أساس وجوهري فيه.

الفئة الثانية: هم أولئك الذين يهتمون مضافا إلى حاجاتهم المادية بمثل معنوية ولكن محدودة، وهذا المثل الأعلى المنخفض الذي تختاره الأمة، وإن كان يرقى بها عن مستوى القسم السابق، إلا أن خطورته تكمن في اتخاذه المحدود محل غير المحدود، واعتقاده بإطلاق هذا المثل الأعلى على الرغم من كونه في واقع حاله غير مطلق. ومن حسنات هذا المثل الأعلى أنه عند تبنيه من قبل المجتمع يثير فيه حراكاً، ولكن بمجرد الوصول إليه يتوقف بها عن الحركة. ويمثل الشهيد الصدر لهذا النوع من المثل العليا المحدودة بالمجتمعات الغربية التي اختارت الحرّيةَ مثلاً أعلى. وهذا خيار صحيح ولكن الخطورة تكمن في تحويل هذا الخيار إلى مثل أعلى مطلق: «**الإنسان الأوروبي جعل الحرية هدفاً وهذا صحيح، ولكنّه صيّر من هذا الهدف مثلا أعلى، بينما هذا الهدف ليس إلّا إطاراً في الحقيقة، وهذا الإطار بحاجة إلى محتوى وإلى مضمون، وإذا جرّد هذا الإطار عن محتواه سوف يؤدّي إلى الويل والدمار، إلى الويل الذي تواجهه الحضارة الغربية اليوم، التي صنعت للبشرية كل وسائل الدمار؛ لأنّ الإطار بقي بلا محتوى، بقي بلا مضمون**».(١٤)

ويمر اعتماد هذا المثل الأعلى المحدود بمراحل أربع، هي:

المرحلة الأولى: مرحلة الإبداع والتجديد، والسعي نحو الغاية

المرحلة الثانية: مرحلة الجمود والوصول إلى الغاية التي تم اختيارها

المرحلة الثالثة: مرحلة السلطة وتحول أصحاب هذا المثل الأعلى إلى قوة حاكمة وطبقة متميزة عن الآخرين.

المرحلة الرابعة: مرحلة التمزق والتشتت والاضمحلال والتلاشي.(١٥).

الفئة الثالثة: أولئك الناس الذين اختاروا الله سبحانه مثلا أعلى. وهؤلاء على الرغم من من اهتمامهم والتفاتهم إلى مُثُل القسمين الأولين، إلا أن امتياز مثلهم الأعلى يكمن في الله المطلق الحقيقي الواقعي الذي لا حد لصفاته، والإنسان في اختياره لهذا المثل الأعلى يسعى للوصول إليه، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بالكدح: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ﴾.(١٦)

وهنا يتحدث الشهيد الصدر عن نوعين من السير والحركة: السير المسؤول، والسير غير المسؤول. وينبه إلى فكرة في غاية الأهمية وهي أن بعض المجتمعات والحكومات التي تتبنى المثل العليا من النوعين الأولين، قد تستفيدان من الدين لتحقيق أهدافهما. ويحذر الشهيد الصدر من الاشتباه والخلط في تقييم التجارب الإنسانية على أساس الاسم بدل النظر إلى المسمى. وهذه الإشارة نجدها تتكرر عند عدد من العلماء غير الشهيد الصدر، ونجدها في تراث الأئمة المعصومين(ع) وفي القرآن الكريم إشارات واضحة إلى بعض النماذج من هؤلاء. وليس بلعم بن باعوراء الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها إلا نموذج لهذا النمط. وهؤلاء هم الذين يصفهم الإمام الخميني بالمتحجرين، والمقدسين سيئي الفهم، وعلماء البلاط.

ودين التوحيد الذي يتبناه أصحاب المثل الأعلى من النوع الثالث، في حال جهاد مستمر ومواجهة مفتوحة مع كل الآلهة المزعومة، وأنصاف الآلهة من المترفين وغيرهم.(١٧) وفي هذه النقطة الأخيرة يكمن جواب السؤال المحير عن إصرار الأنبياء على الصراع عبر التاريخ وعدم رضاهم بالمهادنة ومصالحة الفئات الحاكمة.

وإذا أردنا استخدام مصطلحات الشهيد الصدر وتطبيقها على الدعوة النبوية، فإننا نجد أن التحول الذي أحدثه النبي(ص) في المدينة وما حولها هو من النوع الثالث. والتدقيق في أوضاع وأحوال المجتمع العربي والمقارنة بين ما قبل النبي وما بعده يثبت هذا المدعى بما لا يقبل الشك. وقبل الانتقال إلى المبحث اللاحق لا بد من الإشارة إلى اللوازم المترتبة على تبني المثل الأعلى من النوع الثالث عند الشهيد الصدر.

يرى الشهيد الصدر أن الحركة والسير نحو المطلق يتوقف على الأمور الآتية:

أ- الصورة الواضحة الأيديولوجية حول الله وصفاته؛ أي التوحيد.

ب- الحركة والإرادة الناتجة عن الاعتقاد بالتوحيد بوصفها طاقة محركة لا تنضب

ج- الارتباط بالمطلق بواسطة النبي

د- استمرار المواجهة عبر الإمامة

هـ- الاعتقاد بالمستقبل المشرق والوصول إلى الله[١٨].

الجاهلية وخصائصها

قبل الخوض في الحديث عن خصائص الجاهلية ومميزاتها يحسن بنا الإشارة إلى هذا المفهوم ومنشأ اشتقاقه وأول من ابتكره واستخدمه، وحدود هذا الاستخدام زمانا ومكانا.[١٩]

يتفق الباحثون على أن هذا المفهوم يطلق على ما قبل بعثة النبي محمد(ص). ويتفقون أيضاً على أن الفترة السابقة له بما يقرب من مائتي عام هي فترة جاهلية. ولكن في الجغرافية التي ينطبق عليها هذا المفهوم اختلاف، وسبب الاختلاف في جغرافيا الجاهلية يرجع إلى أن الجاهلية هي مجموعة من الخصائص المعنوية والقيمية يصح إطلاقها على كل مجتمع حوى هذه الصفات مهما كانت الجغرافيا التي يقطنها.[٢٠]

بل يستفاد من بعض الآيات[٢١] والروايات المنقولة عن الأئمة(ع) أن الجاهلية ربما عادت بعد الإسلام، وقد روي عن النبي(ص) قوله: «**بعثت بين جاهليتين، لأخراهما شر من أولاهما**».[٢٢]

وفي حديث عن الإمام الباقر (عليه السلام): «**...إن الناس عادوا بعد ما قبض رسول الله أهل جاهلية...**».[٢٣]

ويقول العلامة الشعراني في شرح هاتين الجاهليتين: «**الجاهلية الأولى هي ما نسميه اليوم بفترة التوحش وهي الفترة السابقة على اطلاع الإنسان على قواعد المدنية والحضارة؛ أي قبل أن يعلم الإنسان أنه مضطر للتقيد بالأحكام والقوانين. في ذلك العهد كان يتعاشر الرجل والمرأة وفق قواعد الغريزة، وبعد أن عرف قوم من الأقوام وأمة من الأمم قواعد الحضارة وآداب المدنية، واطلعوا على مكارم الأخلاق ومحاسن الأحكام والشرائع، ثم عادوا**

فتخلوا عن ذلك كانوا في فترة جاهلية ثانية. فترك العفة والتجرد من قيودها من لوازم توحش الإنسان. ومن هنا، نهى الله سبحانه وتعالى عن الاقتراب من طريقة الحيوان ومنهجه في السلوك سواء في قضايا الجنس أم غيره من الميادين».(٢٤)

وقد استخدم القرآن مصطلح الجاهلية للتعبير عن الفترة السابقة على بعثة النبي(ص)، دون تحديدها بمكان أو زمان محددين.(٢٥)

وفي تحديد المرجعية الاشتقاقية لهذا المصطلح خلاف بين الباحثين، فمنهم من يرى أنه اشتق من الجهل في مقابل العلم، وآخرون لم يقبلوا هذا المعنى ورأوا أن لهذا المصطلح أصلاً اشتقاقياً آخراً، يقول الدكتور عباس زرياب في هذا المجال: «**لقد بحث جولدزيهر هذا الموضوع مفصلا وانتهى، إلى أن الجاهلية ليست مشتقة من الجهل في مقابل العلم. بل يرى أن الأصل الاشتقاقي لهذا المصطلح هو الجهالة في مقابل الحلم. ومن الواضح أن الجاهلية هي معنى يقابل الإسلام في الأدبيات الإسلامية. ويقصد به العصر الذي لم يكن الإسلام قد ظهر فيه، وبالتالي تدل هذه الكلمة بمعناها غير الزمني على كل مجتمع تجرد من الأخلاق الإسلامية وخالفها في مقام السلوك والعمل أو في مجال الاعتقاد والفكر**».(٢٦)

وينقل زرياب عن الدكتور جواد علي أن كلمة الجاهل في القرآن لا تدل على من لا علم له بل تدل على المتكبر المستبد برأيه.(٢٧)

ومن الأدلة التي ادعيت لإثبات هذا المدعى:

أ- إن القرآن الكريم تحدى أهل الجاهلية بالإتيان بمثل القرآن أو مثل بعض سوره، ولو كان أهل الجاهلية ممن لا علم له، فهل يكشف عجز هؤلاء عن الإتيان بذلك عن إعجاز القرآن، فأي إعجاز في عجز الجاهل عن الإتيان بمثل القرآن.

ب- إن ما حفظه التاريخ والرواة لنا عن شعراء العرب من أهل الجاهلية يكشف عن أنهم كانوا أهل ذوق وأدب رفيع. ويؤكد هذا الأمر أدنى مرور ولو سريع على بعض الكتب المتخصصة مثل كتب الصعاليك وأصحاب المعلقات. هذا على الرغم من تشكيك بعض الباحثين مثل طه حسين في كتابه «في الأدب الجاهلي» بانتساب هذه الأشعار إلى العصر الجاهلي. ولكن أولاً هذا الكلام يصعب قبوله على إطلاقه، وثانيا لا ينكر طه حسين صدور مثل هذا النمط من الشعر عن أهل الجاهلية حتى لو أنكر صدور عينه عنهم.

ج- إن الهدف الذي أعلنه النبي(ص) من بعثته هو تتميم مكارم الأخلاق(٢٨)، ويمكن

الاعتماد على هذا الحديث لإثبات أن المشكلة الأساس التي كان يعانيها أهل ذلك العصر هي مشكلة أخلاقية قيمية، لا مشكلة علمية، وبالتالي يكون المراد من الجاهلية المجتمع البعيد عن الخلق والقيم لا البعيد عن العلم والمعرفة.

د- بالنظر إلى القاعدة التي تقول بضرورة التناسب بين المعجزة وبين العصر المخاطَبِ بها، يتبين أن القرآن الذي هو معجزة النبي(ص)، يجب أن يكون متناسبا مع العصر الجاهلي وهذا يكشف عن تمتع أهل الجاهلية بذوق أدبي ومعرفة علمية تسمح لهم بتفهم القرآن والاستناد إليه في تصديق النبي.

هـ- من الأمور المؤيدة لهذا المدعى أقوال أهل اللغة؛ حيث لم يذكر أحد منهم أن الجاهلية تعني عدم العلم، بل ذكر أكثرهم أن الجهالة في مقابل الحلم. مثلا يذكر صاحب المنجد: «جهل، جهلاً، وجهاله: حمق وجفا وغلظ».

و- ورد في روايات المعصومين(ع) وأحاديثهم تفسير الجهل بمعان أخرى غير عدم العلم فحسب. مثلا ورد في الحديث النبوي: «**الجاهل يظلم من خالطه، ويعتدي على من هو دونه، ويتطاول على من هو فوقه، ويتكلم بغير تمييز...**».[٢٩]

ز- من المؤيدات أيضا كلام الباحثين من أهل الاختصاص: يقول عمر فروخ في كتابه تاريخ الأدب العربي: «**الجاهلية اسم أطلقه القرآن على العصر السابق على الإسلام؛ حيث كان العرب يعبدون الأصنام، ويقتل بعضهم بعضا، بل ويقتلون أبناءهم ويدفنونهم أحياء**» ومن الواضح أن هذه المعاني المذكورة لا تمت إلى الجهل في مقابل العلم بصلة واضحة، بل هي أقرب في الدلالة على الجهالة.[٣٠]

وفي السياق عينه يرى شوقي ضيف، الباحث المتخصص في تاريخ الأدب العربي، أن العصر الجاهلي هو عصر تكامل اللغة العربية التي أخذ فيها الأدب العربي واللغة العربية خصائصها الجديدة.[٣١]

وأما الباحث المعروف جواد علي، فيرى أن الجاهلية، هي السفاهة والحماقة والحقارة والغضب، والإباء عن التسليم لأحكام الإسلام.[٣٢]

ويرى بلاشير أن الإسلام والنصوص الدينية الإسلامية أطلقت صفة الجاهلية على جميع الآداب والتقاليد التي تتنافى مع أحكام الإسلام، مثل: شرب الخمر، المقامرة، الانتقام والثأر، وما شابه من الأخلاق التي كانت سائدة في فترة ما قبل الإسلام.[٣٣]

الجاهلية في القرآن:

ولما كان المصدر الأساس لهذا المصطلح هو القرآن، كان لا بد من العودة إليه لاستنطاقه حول ما يقصده عند استخدامه لمفهوم الجاهلية، لنجد أن القرآن استخدم هذه الكلمة في موارد أربعة:

١- في وصف جماعة من أنصار النبي(ص)، شاركوا في معركة أحد مكرهين، حيث يقول تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.(٣٤)

٢- في وصف الله سبحانه وتعالى من لا يريد الالتزام بأحكام الإسلام؛ حيث يقول تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.(٣٥)

٣- في مورد نهي نساء النبي(ص)، عن التبرج؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾.(٣٦)

٤- في وصف كفار مكة؛ حيث يقول الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾.(٣٧)

وفي آيات أخر أشار القرآن إلى أخلاق أهل الجاهلية دون أن يسميها بهذا الاسم، ومن ذلك إشارته إلى: عبادة الأصنام(٣٨)، ونسبة الحياة والموت إلى الطبيعة(٣٩)، وعبادة الجن(٤٠)، ونسبة الولد إلى الله، وتقديس الملائكة بوصفهم بنات الله، تعالى عن ذلك علواً كبيراً(٤١). وكذلك أشار إلى أصنام أهل الجاهلية كاللات وعزى ومناة(٤٢) وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر(٤٣). ومن الخصائص التي ذكرها القرآن لأهل الجاهلية، ونهى عنها: تقديم الأضاحي للأصنام(٤٤)، ذكر الآباء والأجداد والتفاخر بهم في موسم الحج(٤٥)، الجدال والفسوق والعصيان في الحج(٤٦)، ظلم البنات ميراثهن مع إقرار الإسلام بحق النساء في الميراث(٤٧)، وأد البنات ودفنهن وهن على قيد الحياة(٤٨)، إطلاق العنان للرجل في الزواج كما يحلو له دون تحديد بعدد، الأمر الذي نهى عنه القرآن كما منع من التسلط على المرأة بالإيلاء والظهار(٤٩)، أضف إلى ذلك أنه أقر مجموعة من الحدود والتعزيرات لضبط العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة.

وكذلك يقرر القرآن الكريم القاعدة الآتية: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٥٠). ويذكر

المفسرون أن الآية المذكورة تشير إلى العداوة المزمنة التي كانت قائمة بين الأوس والخزرج، فوحد الله بينهم وأزال العداوة من قلوبهم؛ ومن المفسرين الذين يرون هذا الرأي، المفسر محمد بن جرير الطبري؛ حيث يقول: «كان هذا الحيّ من العرب أذلّ الناس ذلاً، وأشقاه عيشا، وأبينه ضلالة، وأعراه جلوداً، وأجوعه بطوناً، مكعومين على رأس حجر بين الأسدين: فارس، والروم، لا والله ما في بلادهم يومئذ من شيء يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقياً ومن مات رُدّي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلاً يومئذٍ من حاضر الأرض، كانوا فيها أصغر حظاً، وأدقّ فيها شأناً منهم، حتى جاء الله عزّ وجلّ بالإسلام، فورّثكم به الكتاب، وأحلّ لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكاً على رقاب الناس...».(٥١)

وبناء على ما تقدم كله يظهر أن المعنى المستفاد من مفهوم الجاهلية في القرآن والأدبيات الإسلامية ليس عدم العلم فحسب. هذا، ولكن لا بد من الاعتراف بعدم وجود دليل يدل على عدم شمول هذا المفهوم لعدم العلم، فإن من جملة الخصائص التي كانت موجودة عند أهل الجاهلية هي الجهل بمعناه المعروف اليوم، وقوة أهل الجاهلية في اللغة والأدب لا تدل على انتشار العلم بينهم، فمن الثابت أن أكثر العرب كانوا أميين لا يعرفون الكتابة إلا نفرا قليلا منهم.

وقد وصف الإمام علي(ع) الجاهلية وأهلها بقوله: «إِنَّ اللهَ سُبحانَه بَعَثَ مُحَمَّداً نَذِيراً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمِيناً عَلَى التَّنْزِيلِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ العَرَبِ عَلَى شَرِّ دِين، وَفِي شَرِّ دَار، مُنِيخُونَ بَيْنَ حِجارَةٍ خُشْنٍ، وَحَيَّات صُمٍّ، تَشْرَبُونَ الكَدِرَ، وَتَأْكُلُونَ الجَشِبَ، وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ، وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ، الأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ، وَالآثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ».(٥٢)

ويقول (ع): «لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلْيَرأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ، وَلاَ تَكُونُوا كَجُفَاةِ الجَاهِلِيَّةِ: لاَ فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلاَ عَنِ اللهِ يَعْقِلُونَ».(٥٣)

ويقول (ع) أيضاً: «بَعَثَهُ وَالنَّاسُ ضُلاَّلٌ فِي حَيْرَةٍ، وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدِ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمُ الكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَخَفَّتْهُمُ الجَاهِلِيَّةُ الجَهْلاَءُ حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الأَمْرِ، وَبَلاَءٍ مِنَ الجَهْلِ، فَبَالَغَ صلى الله عليه وآله فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ».(٥٤)

ومن الواضح في هذه النصوص جميعا ترسيم الانحطاط الفكري للعرب في الجاهلية، إلى جانب الخشونة الطبيعية، والانحطاط المادي إلى جانب الانحطاط المعنوي.

وبحسب تعبير أحد العلماء المعاصرين في شرحه للخطبة ٦٢ من نهج البلاغة؛ حيث يقول: «إن العصر الجاهلي هو عصر كان يعاني الناس فيه من اضطراب على الصعيدين المادي والمعنوي. أما على الصعيد المادي: فإن الناس كانت تعيش في أدنى مستوى من الحياة المادية ولم يكن أكثر العرب في العصر الجاهلي يعرفون معنى الرفاه. وهذا ما أشار إليه الله سبحانه في القرآن الكريم بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.[٥٥]

وأما على الصعيد المعنوي: فإن الأزمة التي كان يعيشها الإنسان العربي هي أزمة الفقر المعنوي والضلال الذي كان يتخبط فيه، حيث لم يكن بين الناس طريق لاحب يسيرون فيه. مع ما يرافق ذلك من حيرة وقلق، وانعدام تفكير في ما هو فوق المادة والماديات، وينتج عن ذلك كله أو يرافقه تفاوت طبقي على أساس المادة أيضا. وفي مثل هذا المناخ الفكري لا مجال للخصال الثلاث التي ربما كانت الامتياز الأساس للإنسان عن غيره من المخلوقات الأدنى منه درجة، وهي: التفكير، الاختيار، والابتكار».[٥٦]

وعليه، يمكن القول: إن الجاهلية هي الكلمة المرادفة للتخلف الاجتماعي الحاد في الأبعاد المادية والمعنوية. وبعبارة أخرى: كل مجتمع مأزوم معنويا وماديا هو مجتمع جاهلي. ومن هنا، تحدث العلماء والفلاسفة المسلمون عن المدينة الفاضلة، مثل الفارابي الذي يتحدث عن أربعة أنظمة سياسية، أو أربعة مدن: المدينة الفاضلة، المدينة الجاهلة، المدينة الفاسقة، المدينة الضالة.

ويقصد بالمدينة الفاضلة المدينة أو النظام السياسي الإسلامي، وسائر المدن التي لا تتبع الإسلام تندرج تحت واحدة من المدن الأخرى التي ذكرها؛ وذلك لأن كل واحدة من هذه المدن يقتصر أهلها على الضروري، أو يتعاون أهلها لبلوغ الثروة وهي مدينة النذالة، أو يسعى أهلها لنيل اللذة فهي مدينة الخسة، وأما المدينة التي يقصد أهلها أن يكونوا قاهرين فهي مدينة الغلبة، والمدينة التي يقصد أهلها أن يفعل كل على هواه هي المدينة الجماعية.[٥٧] وهكذا يتضح أن المدينة الفاضلة هي المفهوم المقابل للمدينة الجاهلة.

وبعد وضوح مفهوم الجاهلية والمجتمع الجاهلي وخصائص هذا المجتمع، يتضح أيضاً أن العصر الجاهلي، أو المجتمع الجاهلي، هو كل مجتمع يعاني من المشاكل الفكرية والمعنوية والمادية وتسوده قيم غير القيم الخلقية الإسلامية، وعلى المستوى الديني يعاني من التعلق بالخرافات، وعلى مستوى السلوك يحكمه قانون «الحق لمن غلب»، وتسود فيه

العادات السيئة كشرب الخمر والمقامرة، علما أن القرآن قرر بوضوح أن الفلاح رهن باجتناب هذه الأمور والبعد عنها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٥٨]. ويسوده أيضا منطق الحسب والنسب والانتماء إلى القبيلة والفخر بهذه الأمور واعتبارها القيم الأساس في التفاضل الاجتماعي، كما تشير إلى ذلك سورة التكاثر في القرآن الكريم.

ومن الناحية الاعتقادية يسوده الشرك وعبادة الأصنام، على الرغم من وجود بعض بقايا التوحيد أو التعبد بأديان أخرى كما كان في العصر الجاهلي حيث كانت بقايا للحنيفية، مع شيء من اليهودية والنصرانية في أماكن مختلفة من شبه الجزيرة العربية في ذلك العصر.

وفي ما يخص النظام السياسي يصعب الحديث في المجتمع الجاهلي عن نظام سياسي واضح خارج الانتماء القبلي ورابطة الدم، فالرابط الوحيد الذي يربط أفراد الجماعة ببعضها هو رابط العصبية، الذي يكون بالالتفاف تحت عباءة شيخ القبيلة الذي قد يتمتع ببعض خصال الخير كالشجاعة، والنبل، والكرم، وقد لا يكون عنده من الامتيازات إلا السن والثروة.

وقد كان الهم الفكري الأساس الذي يشغل العقل العربي في العصر الجاهلي هو الشعر والأدب والخطابة وعلم الأنساب. وعلى الرغم من كثير من الخصال السيئة التي كانت موجودة في المجتمع الجاهلي، إلا أنه لم يخل من كثير من خصال الخير أيضا كإكرام الضيف والشجاعة، وهي خصال حميدة دون شك، إلا أنها كانت تفقد الموجّه الإلهي لها حيث كانت تمارس بحكم العادة والتقليد لا لوجه الله تعالى أو بدوافع دينية.

هذا، وفي ما يأتي من بحثنا سوف نحاول استعراض إنجازات النبي(ص) في تحويل وتعديل خصائص المجتمع الجاهلي وتبديلها بالقيم والخصائص الإسلامية.

مدينة النبي وخصائصها

أشرنا مطلع هذه المقالة إلى أن سؤالنا الأساس، هو كيف استطاع النبي(ص) تحويل المجتمع الجاهلي إلى مجتمع إسلامي؟ ولتوضيح الموقف من هذا السؤال يجب أن نعرف الإنجازات التي تحققت على هذا الصعيد، ولو بشكل إجمالي وموجز:

إن العمل الأول الذي تحقق في مسيرة التغيير النبوي هو التغير الذي طرأ على

شخصية النبي(ص) نفسه؛ حيث تبدل من شخص عادي إلى شخص مسؤول ملتزم بقضية محددة، وقد حصل هذا الأمر بالبعثة ونزول الوحي عليه.

ومن المعلوم أنه بعد نزول الوحي على النبي(ص)، أي عندما خوطب بالقرآن وطُلب منه تبليغه إلى الناس شرع بتنفيذ المهمة الملقاة على عاتقه بالطريقة التي كلف بها، فكانت الدعوة سرية مدة ثلاث سنوات، وبعدها أمره الله بالإعلان والتصريح بالدعوة فكان منه ذلك، وكانت الدعوة هي الهمَّ الأول له في حياته منذ البعثة إلى يوم وفاته، وقد تدرج من دعوة الأقارب إلى دعوة رؤساء القبائل إلى دعوة الملوك كما هو معروف ومفصل في كتب التاريخ والسيرة.

والمنهج الذي اعتمده في الدعوة هو ما يحدده قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[٥٩].

ويمكن تقسيم النشاط النبوي في مجال الدعوة والتبليغ إلى قسمين: نشاط يهدف إلى تغيير الأفكار، ونشاط يهدف إلى تغيير السلوك. ولا يعني هذا التقسيم عدم التلازم بين المسارين؛ لأن التغيير في السلوك من لوازم التغيير في الفكر ولكن ما نقصده ينسجم مع التصور المعروف في الفلسفة الإسلامية؛ حيث الحديث عن نوعين من الفلسفة (الحكمة النظرية والحكمة العملية)، والأول من هذين العلمين يهتم بما هو كائن وما هو غير كائن، والثاني يهتم بما يجب وما لا ينبغي.

وعلى المستوى النظري يمكن القول: إن النبي(ص) أنجز ثورة عقائدية تختصر بما يأتي:

١- تعريف الناس بالله تعالى وتوصيفه بغير ما كان يعتقد كثير من أهل الجاهلية، مع الإصرار الواضح على التوحيد بمعانيه جميعاً. وبعبارة أخرى: تغيير الرؤية الكونية لأهل الجاهلية.

٢- توصيف وتوضيح حقيقة الموجودات الروحانية أو مخلوقات عالم ما فوق المادة.

٣- توصيف وشرح حقيقة الوجود الإنساني وموقع الروح والعقل من الكائن الإنساني.

٤- شرح مفهوم النبوة والقيادة وتوضيح حقيقة الوحي.

٥- شرح طبيعة الموت وموقع الحياة الآخرة والمعاد.

٦- شرح حال الأمم الماضية الصالح منها والفاسد والدعوة إلى التفكير بماضي هؤلاء للاعتبار من أحوالهم وأوضاعهم.

وهذه الأمور جميعاً عرضها القرآن الكريم في الآيات والسور المكية.

وأما على الصعيد الفكري العملي، والقواعد الجديدة التي أقرها الإسلام لتغيير السلوك، فيمكن الإشارة إلى مجموعة من الأمور أهمها:

١- طرح نمط جديد من الأفعال والأقوال التي تهدف إلى تعظيم الله وتمجيده وعبادته سواء في ذلك الصلاة أو غيرها من العبادات المشابهة كالدعاء مثلا، بل وكل القوانين التي تحكم العلاقة بين الإنسان وربه.

٢- طرح نماذج وقواعد للتصرف فعلا وقولا مع أبناء النوع الإنساني للوصول إلى علاقات واضحة وثابتة. ويقع بعض هذه القواعد في مجال الأخلاق وبعضها الآخر في مجال الفقه. ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى ما يأتي: المسارعة في الخيرات[٦٠]، الوسطية والاعتدال[٦١]، الوفاء بالعهد[٦٢]، كظم الغيظ[٦٣]، الدعوة إلى الصدق والصبر[٦٤]، وغيرها من خصال الخير: كالتواضع، والنهي عن التجسس على خصوصيات الأفراد، واجتناب الغيبة والبهتان، والعفو والصفح، والرغبة بالخير للآخرين، وحسن المعشر، ومقاومة الظلم، والدفاع عن المظلوم، وتعظيم الوالدين، والإنصاف والعدل، ومساعدة المحتاجين من الأيتام والمساكين، واحترام العمل، ومراعاة المسائل الصحية، واحترام ملكية الآخرين....، ولا شك في أن هذه الأوامر والقواعد السلوكية تركت أثرها على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والأخلاقية، بل والسياسية أيضا.

٣- طرح نموذج جديد للسلطة والنظام السياسي تحقق مع تأسيس النبي(ص) للدولة الإسلامية الأولى في المدينة، يقوم الحكم فيه على أساس البيعة والمشاركة، والابتعاد عن الاستبداد بالرأي وفق قاعدة المشورة التي أقرها القرآن ومارسها النبي في سلوكه وحياته في كثير من المواطن. ويهدف النظام السياسي الذي أقره الإسلام إلى تأمين الصالح العام وتحقيق العدالة بين الناس بعيدا عن التمييز الطبقي أو العرقي. ومع أن الإسلام مارس أعلى درجات العدالة والإنصاف بين الناس حتى من لم يكن جزءا من الأمة الإسلامية، إلا أنه لم يعدم أعداء يكيدون له ويضمرون له الشر، وأبرز هؤلاء: اليهود والمشركون والمنافقون وهم الأخطر على مسيرة الدولة الإسلامية الناشئة سواء في مكة أم في المدينة.

والمشركون هم أول من رفع لواء المواجهة للنبي(ص)؛ حيث اتهموا القرآن بكل ما أوتوا من أسلحة، فاتهموه بأنه شعر وسحر وأساطير...[٦٥] وبعد أن أصابهم اليأس من إطفاء نور القرآن انتقلوا في مواجهتهم إلى النبي(ص) نفسه منوعين مواقفهم منه بالترغيب تارة والوعيد أخرى، فعرضوا عليه المهادنة ومشاركته دينه على أن يشاركهم دينهم فكان موقفه الواضح ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾، فانتقلوا إلى محاولة القضاء على شخصه وتآمروا لقتله فهاجر إلى مأمن ينقل إليه دعوته، فلاحقوه وجندوا الجيوش لمحاربته والقضاء على دعوته حيث هاجر وكانت معارك وغزوات وحروب وكان للنبي(ص) ما أراد بعد كل ذلك.

ويرجع انتصار النبي(ص) والمسلمين معه إلى عوامل عدة بعضها يرجع إلى خصائص النبي نفسه، مثل: شرف النسب، الماضي العطر، الأخلاق الحسنة، الجهد المضني، اللياقة والأهلية، الإيمان القاطع، المعرفة بظروف الزمان والمكان والأوضاع السياسية والاقتصادية. ولا ننسى في هذا المجال الإشارة إلى الدور الذي لعبه المسلمون الأوائل كخديجة، وعلي وأبي طالب وحمزة وجعفر وغيرهم من المسلمين.

ومن العوامل السلبية التي أدت إلى انتصار الإسلام وانتشاره، الفراغ الذي كان عند المشركين على المستوى السياسي والعقدي. يضاف إليه كون الإسلام فطريا خاليا من كل أنواع التعقيد والعسر، مع ما كان يتمتع به العربي من خصال كالشجاعة وإكرام الضيف والصبر على المشقة.

وإلى جانب ما تقدم كله نعتقد أن الأساس في كل هذه التحولات هو التحول الداخلي الذي أصاب الإنسان العربي بعد إسلامه. فإن ما حصل بعد بعثة النبي(ص) لم يكن تغييراً في القوالب الظاهرية بل تعدى الظاهر ليصل إلى الأعماق ويغير باطن الإنسان ومعرفته ورؤاه وحتى عواطفه ومشاعره. وبكلمة مختصرة، ما تغير بالإسلام هو ثقافة المجتمع العربي.

بناء على ما مر يمكن القول: إن الهم الأكبر للنبي(ص) كان متوجها إلى التغيير الثقافي في الفترة الأولى من الدعوة وبخاصة في السنوات الثلاث عشرة الأولى؛ وبعبارة أخرى: كانت المرحلة المكية مرحلة بناء الفرد والمرحلة المدنية مرحلة بناء المجتمع.

وعلى الرغم من تعدد الحروب التي خاضها النبي(ص) في مرحلة المدينة، إلا أنه لم يكن يهدف في أي منها إلى فرض الدين على الناس بالقوة والإكراه، وكان الطابع العام للمعارك الإسلامية طابعا دفاعيا، بغرض إقامة العدل والقسط بين الناس، ولكن بما أن العدل يحتاج

إلى قوة ليقوم ويحمى اضطر النبي(ص) إلى ممارسة القوة[٦٦]، وللسبب نفسه أمر الله بالاستفادة من عناصر القوة كي لا يطمع العدو بالكيان الإسلامي[٦٧].

وهكذا استبدل النبي(ص) عناوين شيخ القبيلة بالنبوة والقيادة الإلهية، واستبدل القيم الجاهلية بالقيم الإسلامية، فجعل التوحيد في مقابل الشرك، وتحمل المسؤولية بدل التخلي عنها، والعقيدة بالمعاد والإيمان بالمستقبل بدل الفراغ والعبثية، والعمل والإنتاج بدل الغارة للحصول على المال والثروة، ومساعدة المحتاجين بدل استغلال الناس، ومصلحة المجتمع والأمة بدل مصلحة الفرد، والحكومة العالمية بدل القبيلة، والثقة بدل سوء الظن، والمسارعة في الخيرات بدل التنافس في الشر[٦٨].

ويختصر القرآن الكريم هذه المعاني جميعا بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٦٩].

وبتعبير قرآني آخر: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[٧٠] لينطلق بذلك الفكر الإنساني بعد انعتاقه من الأسر، ويحلق حيث يمكن له أن يحلق. وقد اعتمد النبي(ص) للوصول إلى هذه الأهداف، الوسائلَ المشروعة، فلا محل للغدر والخيانة والظلم في سيرة الصالحين فكيف بالأنبياء والمرسلين.

ومن هنا، نجد أن من أكثر الأمور التي أصر عليها القرآن الكريم قضية العدالة والبعد عن الطغيان وتجاوز الحد، في موارد عدة من آياته وسوره ومن ذلك:

- ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[٧١].

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٧٢].

بل إن الله سبحانه ولتأكيد أهمية الأخلاق في مسيرة الدعوة وأساليبها، نجده يوصي النبي(ص) بالحذر من سب آلهة المشركين وأصنامهم حتى لا يستفزهم ذلك ويسد باب الهداية في وجوههم: ﴿وَلاَ تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٧٣].

ولم تكن دعوة النبي(ص) خاصة بالرجال أو مقتصرة عليهم، بل شارك في دعوته

النساء فبايعنه كما بايعه الرجال، وقد أكد القرآن الكريم دور المرأة في الاجتماع الإنساني من خلال ذكر نماذج تمثل قدوة للرجال كما للنساء مثل: آسية، ومريم، وهاجر، وتحدث عن رجاحة عقل بلقيس وكيف آمنت بسليمان(ع)[٧٤]. وربما تبدو هذه الأمور في عصرنا هذا عادية في بعض المجتمعات وهي ليست كذلك حتماً، فإن التشريعات الإسلامية في حق المرأة ما زالت ترجح على أحدث ما أقرته القوانين المعاصرة، وعلى أي حال فإن أهمية هذه الأمور التفصيلية تظهر عندما ننظر إلى العصر الذي أنزلت فيه هذه الآيات الإلهية؛ حيث كانت المرأة مصدر عار تسود الوجوه عند البشارة بولادتها. وعلى الرغم من الانحراف الذي حصل على مسيرة الإسلام وحركته في المجتمعات الإسلامية، إلا أنه مع ذلك لم يؤد هذا الانحراف إلى هدم الصرح ولا إلى التأثير على عظمة بنيانه.

نعم لقد أسس النبي(ص) ثقافة وحضارة كانت وما زالت تسير قدما، وعلى الرغم من فترات الركود التي أصابت الثقافة الإسلامية في بعض العصور، إلا أن وجود القرآن بين المسلمين يعد مصدر إلهام وقوة تعيد النضارة إلى هذه الحضارة كلما ذبل جانب من جوانبها.

وتظهر عظمة ما بناه النبي(ص) وعمق التعديلات التي أدخلها على المجتمع الإسلامي من خلال المقارنة بين عصره وبين السنوات اللاحقة لوفاته؛ عندما عادت الجاهلية لتطل بقرنها من جديد.

وفي هذا المجال عقد أبو الأعلى المودودي مقارنة بين دولة النبي(ص) وبين الدولة الأموية، وذلك في مجال منهج إدارة السلطة، فوصل إلى النتائج التالية:

١- تغيير شكل الحكم بتحويل الخلافة إلى ملكية.

٢- تغيير نمط عيش الخلفاء والحكام.

٣- تغيير منهج وطريقة الإنفاق من بيت المال.

٤- نهاية زمن حرية المعتقد؛ بحيث لم يعد من الممكن في عصر الأمويين تطبيق قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو ما يعرف بنصيحة الحكام، وفي هذا السبيل قدم الإمام الحسين نفسه شهيدا.

٥- التضييق على القضاة والمؤسسة القضائية، وإلحاق هذه المؤسسة بالحاكم وائتمارها بأمره.

٦- اختلاف منهج إدارة الحكم وتحول الحكم إلى حكم استبدادي، وإبعاد النخب الصالحة وأهل الحل والعقد.

٧- إحياء العصبيات القومية والقبلية، بدل اعتماد المعايير الإسلامية في التفاضل بين الناس.

٨- اضمحلال روحية التسليم للقانون(٧٥).

نتائج البحث:

إذا اعتمدنا تحليل فيبر يمكن القول: إن النبي(ص) أسس حضارة جديدة في شبه الجزيرة العربية من خلال تغيير رؤى عرب الجاهلية. ووفق تعبير السيد محمد باقر الصدر نقول: إن المثل التي كان يتبناها العرب في الجاهلية هي من النوع الأول الذي يؤدي إلى الرضا بالوضع القائم، وما فعله النبي(ص) هو تغيير تلك المثل العليا المنخفضة بمثل أعلى مرتفع يستند إلى الوحي والسماء. وقد أدى طرح هذه الأفكار الدينية الجديدة بين الناس وتقديمها إليهم وتبليغها لهم بالدعوة على منهج الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، أدت هذه الأساليب إلى اعتماد المسلمين لهذه المثل وقبولهم لتلك الأفكار، ولم يكن قبول المسلمين لهذه الأفكار واعتقادهم بها مستندا إلى أسباب اقتصادية أو سياسية أو عسكرية. فلم يعد النبي(ص) أحدا بمنصب، ولم يطمّع شخصا بمال ليقبل ما يطرح له من أفكار، بل كان الشعار الذي يحكم حركة الدعوة إلى الدين الجديد هو شعار «لا إكراه في الدين».

وإن تغيير المحتوى الباطني للعرب جعلهم ينصرفون إلى الله أي المثل الأعلى المطلق، ومن آثار هذا التعلق بالمثل الأعلى الجديد، بدأت تظهر عندهم أمارات عدم الرضا على الوضع القائم فساروا مع النبي(ص) جنبا إلى جنب وهاجروا معه كما هاجر واستقروا معه حيث استقر، واحتضن أهل يثرب دعوة النبي الجديدة، ومن هناك بدأت تظهر إلى حيز الوجود حضارة جديدة عظيمة هي الحضارة الإسلامية. هذه الحضارة التي تحمل كل إمكانيات البقاء والمقاومة حتى في العصر الحاضر، بل وتملك القدرة على المنافسة، على مستوى إنتاج الأفكار كما على مستوى الإنتاج المادي.

والتنمية الحقيقية هي تنمية الإنسان نفسه؛ فإن الإنسان عندما ينمو ويتغير محتواه الداخلي وترتفع مثله العليا، سوف ينعكس هذا النمو على التركيب الاجتماعي ومؤسسات

المجتمع السياسية والعسكرية مع ما يترتب على ذلك من آثار ونتائج؛ مثلا: ارتفاع عدد القوى النظامية والعسكرية والشرطة واحد من مؤشرات التنمية في المجتمعات التي تؤثر التنمية المادية على غيرها، بينما التنمية عندما تكون تنمية إنسانية سوف يكون انخفاض عديد هذه القوى مؤشر التنمية، والدليل عليها.

ووفق هذه الرؤية يبدو بوضوح سبب ابتداء الدعوة الإلهية بالأمر بالقراءة في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، وتظهر هذه الآية حقيقتين أولاهما الدعوة إلى العلم والمعرفة، والحقيقة الثانية أن يكون هذا العلم وهذه القراءة باسم الله تعالى. وربما تمكن استفادة هذا المعنى من آيات أخر من القرآن الكريم.

وهكذا يعلم أن دعوة الإسلام وأول رسائله وتوصياته وضعت اللبنتين الأساسيتين في بناء الحضارة وهما العلم والدين. وهاتان الدعامتان أشبه بجناحين لا يمكن أن تقوم قائمة لحضارة من دونهما. فالدين من دون علم ووعي مستنقع خرافات، والعلم من دون دين حجاب أكبر وظلمات بدل أن يكون نورا واستنارة. ويتضح البون الشاسع بين دعوة الإسلام وبين الجاهلية من خلال المقارنة بين: دعوة الإسلام إلى العلم والمعرفة ورواج الخرافة والتعلق بالخرافات في المجتمع الجاهلي، وبين الله في الإسلام وبين الصنم في الجاهلية، وبين العقل وأهميته في الإسلام وبين الجهل والجهالة في الجاهلية. وعلى أي حال إن التنمية وما شابهها هي مفاهيم نسبية في الإسلام، ترتبط بالجهد الإنساني نفسه، وتسير وفق تطوره، وهذا ما يشير إليه كلام الفيلسوف الإسلامي ابن باجة حول استغناء المدينة الكاملة عن الطب والقضاء لمراعاة أهلها قواعد التغذية التي تغنيهم عن الطبيب وقواعد التعامل التي تغنيهم عن الخصوصية والحاجة إلى القضاة. وكذلك حول ترقي أهل المدينة الكاملة أعلى مدارج الكمال وبعدهم عن الخطأ في الرأي لاتصالهم بمصدر الوحي الإلهي(٧٦).

ومن الواضح اختلاف الصورة بين البلدان التي تسمى الآن بلدانا متطورة وبين الصورة التي يرسمها ابن باجة للمدينة الكاملة، وأعتقد أن الفرق الأساس يكمن في المصالحة بين العلم والدين، والمزج بينهما في الحضارة الإسلامية.

ويقول الشهيد مرتضى مطهري عن العلاقة بين الإيمان والعلم:

«إن العلم يقدم إلينا الضوء والنور، والإيمان يهبنا الدفء والحماس إلى العمل، العلم يساعد على اكتشاف الأدوات والوسائل، والدين يحدد المقصد، العلم يضاعف سرعتنا في

الحركة، والإيمان يحدد لنا الوجهة التي ينبغي أن يسير وفقها، العلم يوفر لنا القدرة، والدين يمنحنا حسن الاختيار والإرادة، العلم يشرح لنا ما هو كائن، والدين يوضح لنا ما ينبغي أن يكون، العلم هو ثورة خارجية والدين هو ثورة في داخل الإنسان وفي أعماق روحه، العلم يؤنسن العالم والكون، والدين يؤنسن باطن الإنسان نفسه، العلم يوسع الوجود الإنساني أفقيا والدين يوسع وجوده عموديا ويشده نحو الأعلى، العلم هو جمال الفكر، والإيمان هو جمال العواطف والمشاعر، العلم والدين كلاهما مصدر أمن واطمئنان للإنسان، أما العلم فهو مصدر أمن من الخارج في مقابل الأمراض والكوارث الطبيعية وما شابه، والدين مصدر أمن للإنسان في مقابل الاضطراب والقلق والشعور بالوحدة والضياع والفراغ، العلم يحاول التوفيق بين العالم والإنسان والدين يسعى إلى التوفيق بين الإنسان وذاته»(٧٧).

وبناء على ما تقدم نخلص إلى هذه النتائج:

١- إن التنمية هي عبارة عن تحول ينبغي أن يصيب الفرد والمجتمع على حد سواء.

٢- إن أي تطور وتحول يصيب المجتمع لا يصل إلى مبتغاه وغاياته، ما لم يكن الإنسان شريكا ومساهما فيه، عن وعي واختيار.

٣- إن الشرط الأساس للحضور الواعي الاختياري للإنسان في ساحة الاجتماع الإنساني، هو وجود الفكر والإيمان الثابت جنبا إلى جنب في ضمير الإنسان وساحة المجتمع.

٤- إن الشرط المهد لوجود الفكر والإيمان في الاجتماع الإنساني، هو توجه أعضاء المجتمع جميعا أو أكثرهم إلى الجمع بين العلم والدين وعدم التضحية بأحدهما لمصلحة الآخر، بل ينبغي أن تتوفر هاتان المقولتان في ساحة الاجتماع الإنساني: إيمان العلماء، وعلم المؤمنين.

عندما تتوفر هذه الخصوصيات نحصل على خير الدنيا والآخرة الذي يأمرنا الله بالدعاء للحصول عليه بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(٧٨).

الهوامش:

(١) لمزيد من الاطلاع حول نظريات التنمية ينظر: يوسف نراقي، التنمية والبلدان التي لم تصل إلى التنمية، (دراسة تحليلية من البعد النظري والتاريخي)، الطبعة الثانية، طهران، الشركة المساهمة للنشر، ١٣٧٣ هـ. ش.؛ وأحمد ساعي، مدخل إلى معرفة القضايا الاقتصادية السياسية في العالم الثالث (السياسة، السلطة، عدم المساواة)، طهران، نشر قومس، ١٣٧٤ هـ. ش.

(٢) عباس حاج فتح علي ها، التنمية التكنولوجية، طهران، منشورات جامعة العلامة الطباطبائي، ١٣٧٢ هـ. ش.، ص ٩، نقلا عن: مايكل تودارو، التنمية الاقتصادية في العالم الثالث، ترجمه إلى الفارسية غلام علي فرجادي، مؤسسة التخطيط والميزانية، ١٣٦٣ هـ. ش..

(٣) المصدر نفسه، ص ١٠، نقلا عن: علي أسدي، التنمية مسرعة على طريق التكنولوجيا، مجلة التدبير، العدد الثالث، شهر مرداد ١٣٦٩ هـ. ش..

(٤) محمود سريع القلم، القواعد الثابتة للتنمية، مجلة: اطلاعات سياسي اقتصادي (المعلومات الاقتصادية السياسية)، العدد العشرون، شهرا: فروردين و أرديبهشت ١٣٦٩هـ. ش..

(٥) المصدر نفسه، نظرية الانسجام الداخلي، مجلة رسالة الثقافة (مجله نامه فرهنگ) العدد الثالث عشر، ص ١٠١ و ١٠٨.

(٦) نقلا عن: عبد العلي قوام، السياسات المقارنة، طهران، منشورات سمت، ١٣٧٣هـ. ش.، ص ١٠٦ – ١٠٧. (فارسي)

(٧) همايون إلهي، الإمبريالية والتخلف، طهران، منشورات قومس، ١٣٦٧، مضافا إلى محاضراته في جامعة باقر العلوم.

(٨) ماكس فيبر، الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، ترجمه إلى الفارسية: عبد المعبود الأنصاري، الطبعة الثانية، طهران، منشورات سمت، ١٣٧١ هـ. ش.

(٩) سورة الرعد: الآية ١١.

(١٠) سورة المائدة: الآية ١٠٤.

(١١) سورة يونس: الآية ٧٨؛ وانظر أيضا: سورة الزخرف: الآية ٢٢؛ وسورة البقرة: الآية ١٧٠؛ وسورة هود: الآية ٦٢.

(١٢) سورة القصص: الآية ٣٨.

(١٣) سورة غافر: الآية ٢٩.

(١٤) السيد محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، لاط، لاتا، دار التعارف، بيروت، ص ١٦٧ – ١٦٨.

(١٥) المصدر نفسه، ص ١٧٢ – ١٧٧.

(١٦) سورة الانشقاق: الآية ٦.

(١٧) انظر: السيد محمد باقر الصدر، مصدر سابق، ص ١٧٩ وما بعدها.

(١٨) المصدر نفسه.

(١٩) للتعرف على مفهوم الجاهلية ينبغي مراجعة المصادر الآتية: القرآن الكريم، نهج البلاغة، وكتب اللغة مثل لسان العرب، ودوائر المعارف والموسوعات ومنها دائرة معارف التشيع، والكتب المتخصصة في

التاريخ مثل: المفصل في التاريخ، وتاريخ الأدب العربي، وشرح المعلقات....

(٢٠) انظر: رسول جعفريان، التاريخ السياسي للإسلام: سيرة رسول الله (ص)، طهران، مؤسسة النشر التابعة لوزارة الإرشاد، ١٣٧٣ هـ.ش.، ج ١، ص ٧٣.

(٢١) سورة آل عمران: الآية ١٤٤؛ سورة الأحزاب: الآية ٣٣؛ سورة محمد: الآية ٢٥.

(٢٢) بهاء الدين خرمشاهي، دائرة معارف التشيع، ج٥، مقالة الجاهلية، ص ٢٨٤؛ نقلا عن: معجم أحاديث الإمام المهدي، ج ١، ص ٤٤؛ وانظر أيضا: أمالي الشجري، ج ٢ ص٢٧٧.

(٢٣) محمد بن يعقوب الكليني، الكافي، ج ٨، ص٢٩٦.

(٢٤) بهاء الدين خرمشاهي، المصدر نفسه، نقلا عن: العلامة الشعراني، نثر طوبى، ص ٦٩.

(٢٥) رسول جعفريان، مصدر سابق، ص٧٤.

(٢٦) بهاء الدين خرمشاهي، مصدر سابق، ص ٢٨١.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٢٨١، وينقل عنه استناده إلى الآية ٦٣ من سورة الفرقان.

(٢٨) ورد في الحديث عن النبي(ص): «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»؛ انظر: نهج الفصاحة، ترجمة أبو القاسم بايندە، منشورات جاويدان، ١٣٦٠ هـ. ش.، ص ١٩١، الحديث: ١٣١٩.

(٢٩) نهج الفصاحة. ص ٢٧٨. حديث ١٣١٩.

(٣٠) أمير سلماني رحيمي، كلام في معنى الجاهلية، مقالة منشورة في مجلة: كيهان الثقافي، العدد ١٣٨، سنة ١٣٧٦ هـ. ش.، ص١٨، نقلا عن عمر فروخ تاريخ الأدب العربي، ج ١، ص ٧٣.

(٣١) المصدر نفسه، نقلا عن: شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي: العصر الجاهلي،

(٣٢) رسول جعفريان، همان، ص٧٥ به نقل از: جواد علي، المفصل، ج ١، ص ٤٠.

(٣٣) المصدر نفسه نقلا عن بلاشير، تاريخ الأدب العربي، ج ١، ص٤٧.

(٣٤) سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

(٣٥) سورة المائدة: الآية ٥٠.

(٣٦) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٣٧) سورة الفتح: الآية ٢٦.

(٣٨) سورة الزمر: الآية ٣.

(٣٩) سورة الجاثية: الآية ٢٤.

(٤٠) سورة الأنعام: الآية ١٠٠؛ وسورة الصافات: الآية ١٥٨.

(٤١) سورة الأنعام: الآيتان ١٠٠ و ١٠١؛ وسورة النحل: الآية ٥٧؛ وسورة النجم: الآية ٢١ وما بعدها.

(٤٢) سورة النجم: الآيتان ١٨ و١٩.

(٤٣) سورة نوح: الآية ٢٣.

(٤٤) سورة البقرة: الآية ١٧٣؛ وسورة المائدة: الآية ٣.

(٤٥) سورة البقرة: الآية ٢٠٠.

(٤٦) سورة البقرة: الآية ١٩٧.

(٤٧) سورة النساء: الآية ١١.

(٤٨) سورة الأنعام: الآيتان ١٣٧ و ١٥١؛ وسورة الإسراء الآية ٣١؛ وسورة التكوير: الآية ٨.

(٤٩) سورة البقرة: الآية ٢٢٩؛ ولمزيد من الاطلاع مقالة بهاء الدين خرمشاهي حول الجاهلية مصدر سابق.

(٥٠) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

(٥١) تفسير الطبرى، ج ٤، ص٢٥.

(٥٢) الإمام علي بن أبي طالب، نهج البلاغه، قسم الخطب، الخطبة ٢٦.

(٥٣) المصدر نفسه، الخطبة ١٦٦.

(٥٤) المصدر نفسه، الخطبة ٩٥.

(٥٥) سورة قريش: الآيتان ٣ و ٤.

(٥٦) آية الله السيد علي الخامنئي، دروس من نهج البلاغة، لا مكان، منشورات السيد جمال، لا تاريخ، ص ٥٢.

(٥٧) انظر: أبو نصر الفارابي، آراء أهل المدينة الفاضلة، تحقيق فوزي متري نجار، بيروت، دارالمشرق، لا تاريخ، ص ١٠١.

(٥٨) سورة المائدة: الآية ٩٠.

(٥٩) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٦٠) سورة البقرة: الآية ٤٨.

(٦١) سورة لقمان: الآية ١٨.

(٦٢) سورة الإسراء: الآية ٣٤.

(٦٣) سورة آل عمران: الآية ١٣٤.

(٦٤) سورة آل عمران: الآية ١٦.

(٦٥) ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (سورة الأحقاف: الآية ٧)؛ و ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ (سورة الصافات: الآية ٣٦)؛ و ﴿قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (سورة القلم: الآية ١٥)؛ و ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (سورة فصلت: الآية ٢٦).

(٦٦) جاء في القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾، (سورة الحديد: الآية ٢٥).

(٦٧) التوصية الإلهية في هذا المجال هي: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٦٨) لمطالعة أحداث تاريخ الإسلام راجع: ابن هشام، السيرة النبوية، بيروت، دار المعرفة، البلاذري، فتوح البلدان، بيروت، ١٩٧٨ م.، أنساب الأشراف، بيروت، ١٤٠٠ ق.، مروج الذهب ومعادن الجواهر، بيروت دار الأندلس.

(٦٩) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٧٠) سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

(٧١) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(٧٢) سورة المائدة: الآية ٨.

(٧٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

(٧٤) سورة النحل: الآيتان ٢٤ و ٤٤؛ سورة القصص: الآيات ٧- ١٣، و٣٢- ٢٧ حول بنات شعيب؛ وسورة آل عمران: الآيات ٣٧-٣٩ حول مريم وزكريا؛ وسورة الممتحنة: الآية ١٢ حول بيعة النساء للنبي(ص).

(٧٥) انظر السيد أحمد موثقي، الحركات الإسلامية المعاصرة، طهران، منشورات سمت، ١٣٧٤ هـ. ش.، نقلا عن أبي الأعلى المودودي، الخلافة والملكية، ترجمه إلى الفارسية: خليل أحمد الحامدي، باوه (إيران)، منشورات بيات، ١٤٠٥ هـ. ق.، ص ١٨٧- ٢٠٩.

(٧٦) انظر: ابن باجة الأندلسي، تدبير المتوحد، تحقيق معن زيادة، بيروت، دار الفكر الإسلامية، ١٣٩٨، ص ٤٣.

(٧٧) مرتضى مطهري، مقدمة للرؤية الكونية الإسلامية، منشورات صدرا، ص ٢١.

(٧٨) سورة البقرة: الآية ٢٠١.